مُقَدِّمَة

الفكر اليوناني قبل الفلسفة

١ - العالم اليوناني:

أ- كان اليونان يعتقدون أنهم أصليون في جزيرتهم؛ والحقيقة أنهم جاءوها من آسيا. فهم آريون أو هنديون أو أوربيون، وكانوا يدعون سكان بلاد الأولين بالبلاجيين ويدعون أنفسهم بالهلانيين، وكانوا أربع قبائل كبرى مختلفة خلقًا ولهجة: الأيوليون والدوريون في الشمال، والأخيون والأيونيون في بلوبونيسيا (المورة الآن)، ولكن هذا التقسيم اضطرب في القرن الثاني عشر قبل الميلاد؛ إذ أغار أهل تساليا على شمال اليونان فهاجر الأيوليون إلى آسيا واحتلوا لسبوس أكبر جزر الشاطئ الأسيوي، واحتلوا هذا الشاطئ من الدردنيل إلى خليج أزمير فسميت هذه المنطقة أيولية. أما الدوريون فهبطوا المورة وأخضعوا الأخيين، وتهددوا الأيونيين؛ فجلا هؤلاء فريق منهم صعد إلى الأتيك في شمال المورة إلى الشرق وفريق أبحر على آسيا فاحتل جزيرتي خيوس وساموس والشاطئ الأسيوي من أزمير إلى نهر ميادندر؛ فعرفت هذه المنطقة باسم أيونية وقامت فيها مدن شهيرة أهمها أزمير (اغتصبوها من الأيوليين) وأفسوس وملطية، ولم يقتص الدوريون على فتح المورة، بل استعمروا الجزر الممتدة من قيثارة في جنوب المورة إلى رودس عند الشاطئ الأسيوي وقسمًا من هذا الشاطئ إلى جنوب أيونية، وسمي هذا القسم بالدورية.

ب - وفي القرنين الثامن والسابع نشبت حروب أهلية بين الشعب والأشراف انتهت في أثينا واسبرطة وبديمقراطية ومقيدة نظمها في الأولى

دستور سولون، وفي الثانية دستور ليقورغ. أما في غيرهما من المدن فكانت الخطوط متباينة واضطر المغلوبون للهجرة، ولكنهم لم يذهبوا شرقًا في هذه المرة بل قصدوا إلى مناطق ثلاث: فمنهم من صعد إلى الشمال فحل شواطئ تراقية وخلقيدية، أي الروملّي الحالية، ومنهم من سافر إلى الغرب فاستعمر إيطاليا الجنوبية، (وقد سماها الرومان لذلك باليونان الكبرى) وصقلية، والأندلس، وجنوب فرنسا، حيث أنشأوا مرسيليا، ومنهم من يمم الجنوب فنزل قبرص ومصر وشمال أفريقيا، وفي هذا العصر بنى بعض الدوريين مدينتين على ضفتي البوسفور: الواحدة على الضفة الشرقية هي: خلقيدونية (أشقودرة)، والأخرى على الضفة الغربية وهي: بيزنطية (استانبول).

جـ - وكانت هذه المدن والمستعمرات المنتشرة في البحر المتوسط من الشرق إلى الغرب مستقلة في السياسة والإدارة، ولكنها كانت تؤلف عالمًا واحدًا هو العالم اليوناني تجمع بين أجزائه وحدة الجنس واللغة والدين، فكانوا كلهم يعبدون تزوس ويحجون إلى معبده الأكبر في أولمبية بالمورة، كما كانوا يأتون دنف في سفح بجل برناس يستنزلون وحي أبولون ويبعثون بالمندوبين في الأعياد الكبرى يحملونهم التقدمات والقرابين، وكانت تلك الأعياد أزمنة حرمًا توقف فيها الحروب، وتقام الألعاب الرياضية وأسواق الأدب والفن، فينشد الشعراء، ويغني المغنون، ويعرض المصورون والمثالون آياتهم، والمهاجرون يشاركون في كل ذلك فكان هذا الاتصال المستمر بالوطن الأول، وتلاقى الجميع في آجال معينة تبادل الأفكار والسلع عاملاً قويًا في إنضاج الحضارة اليونانية على النحو الذي جعلها فذة في التاريخ، ويرجع الفضل الأكبر فيها للمستعمرين بالإجمال، وللأيونيين منهم بنوع خاص؛ فإن مخالطتهم للأمم الأجنبية قوت نسلهم، ووسعت مداركهم وحررت عقولهم،

وكان الأيونيون أنجب اليونان، جاوروا الأمم الشرقية فانتفعوا بعلومها واصطنعوا وسائل مدنيتها؛ فكانت بلادهم مهد الثقافة اليونانية فيها نظمت القصائد الهوميرية، ومنها خرج العلم والفلسفة.

٢- هوميروس:

أ – كان المعتقد إلى سبعين سنة خلت أن شعر هوميروس يمثل طفولة الفكر اليوناني ومن ثمة طفولة الإنسانية على تقدير أن تصور هوميروس من السذاجة بحيث يصح اعتباره أول مرحلة من مراحل العقل يحاول فهم الطبيعة وفهم نفسه، ولكن العلماء كشفوا سنة ١٨٧١، وما زالوا يكشفون عن آثار في شبه الجزيرة وفي بعض الجزر وعلى الخصوص كريت عرفوا منها أنها حضارة مادية عظيمة أزهرت في اليونان قبل هوميروس بثمانية قرون هي المذكورة في أساطيرهم وفي وقائع طروادة إلى أن دمرها الدوريون في إغارتهم المشهورة حوالي سنة ١١٠٠، وأيقنوا أن الحياة التي يصفها الشعر الهوميري بما فيها من غنى وقوة وفن وترف وليدة تطور قديم، على أن أقدم ما وصل إلينا من شواهد الفكر اليوناني الإلياذة والأوديسة وهما تنسبان لهوميروس منذ زمن بعيد، إلا أن الشك قديم في حقيقته وفي نسبة القصتين جميعًا لشاعر واحد، ولقد أثبت النقاد المتأخرون أن كليهما مجموعة قصائد لشعراء مختلفين في موضوع واحد مما يحدو للظن أن النسبة أتت من أن هوميرس كان واحدًا من أولئك الشعراء وكان أشهرهم أو أنه كان أحدثهم عهدًا حفظًا وأنشدها فنسبت إليه باعتباره الجامع لها فإن اسمه يعني «المنسّق». ويرد النقاد الإلياذة إلى القرن التاسع والأوديسة إلى آخر هذا القرن التاسع والنصف الأول من القرن الثامن. فإذا حكمنا على هذا العصر بالقصائد الهوميرية وضعناه في مرتبة دنيئة من مراتب الفكرة لما نجد فيها من سذاجة في تصور الطبيعة والإنسان

ومن إسراف في تأنيث الآلهة واستهتار بالأخلاق ليس له مثيل.

ب – أما الطبيعة فهي عند هوميروس حية مريدة وقد يكون هذا متابعة للتصور المعبر عنه بالبدائي كما يريد بعض المؤلفين، ولكنه على أي حال مألوف في الشعر إلى أيامنا، فلا غرابة في قوله مثلاً إن نهر زونتوس استشاط غضبًا لأن أخيل ملأه بالجثث – ولا في تشخيصه الليل والظلمات والموت والنوم والحب والشهوة والعماية • بل لا غرابة في تأليهه الأرض، وقوله إنها ولدت الجبال الشاهقة والسماء المزدانة بالكواكب، ثم تزوجت من السماء المحيطة بها من كل جانب فولدت أقيانوس والأنهار وأن أقيانوس المصدر الأول للأشياء، فعندنا أن الأساطير القديمة في جملتها رموز تخفي وراءها مقاصد علمية إذا ترجمناها إلى لغتنا المعهودة بدت واضحة مقبولة، وأخطر من ذلك تصور الآلهة والمبادئ الخلقية، فالآلهة في قمة الأوليمب يؤلِّفون حكومة ملكية على رأسها تزوس ويجيء من بعده سائر الآلهة والآلهات وكلهم في صورة بشرية، إلا أن سائلاً عجيبًا يجري في عروقهم فيكفل لهم الخلود، وهم أقوى من الأبطال وأسرع حركة، يظهرون للناس أو يختفون كما يشاءون، يسكنون قصورًا في السماء فخمة يقضون فيها حياة ناعمة في ربيع مقيم يأكلون ويشربون ويتزاوجون، تجرحهم السهام والرماح فيألمون وينتحبون. وهم حادثون، وجدوا في الزمان، وما يزالون خاضعين لتعاقب الأيام، وهم على مثل هذا ا لنقص من الناحية الخلقية لهم شهواتهم وعصبياتهم، يتفرقون أحزابًا ويتدخلون في منازعات البشر، يؤيد بعضهم اليونان، ويناصر البعض الآخر أهل طروادة، يتشاءمون ويتضاربون، ويخونون ويغدرون، لا يرعون من البشر إلا من يتقرب إليهم كيفما كانت أخلاقه، ويذهبون في رعايتهم إلى حد أن يهبوا مختاريهم التوفيق في الخديعة أو المهارة في السرقة، لا يحفلون بعدل أو بظلم إلا فيما ندر. ولا يعتد

كثيرًا بما في الأوديسة من إشارات خلقية ومن ذكر عدالة تزوس فإن فيها أيضًا تسليمًا بالقدر يقضي به الآلهة على البشر دون اعتبار لقيمة أفعالهم بل إن القدر يسخر من الفضيلة ويبعث بالإرادة الصالحة، وأما الإنسان عند هوميروس ومعاصريه من اليونان فمركب من نفس وجسد والجسد مكون من ماء وتراب ينحل إليهما بعد الموت، والنفس هواء لطيف متحد بالجسد متشكل بشكله ينطلق بالموت شبحًا دقيقًا لا يحسه الأحياء فينزل إلى مملكة الأموات في جوف الأرض وقد احتفظ بالشعور وفقد القدرة على العمل، فهو يألم لذلك ويقضي هناك حياة باهتة تافهة خير منها بألف مرة الحياة على وجه الأرض في ضوء النهار مهما تبلغ من البساطة والفقر. وليس في هذا العالم الآخر ثواب ولا عقاب إلا في النادر يوزعهما الآلهة بمثل ما يوزعون في الحياة الفانية من عدل معكوس فيحابون أصدقاءهم وينكلون بأعدائهم، وليست صداقتهم قائمة على الخير أو عداوتهم مسببة عن الشر.

جـ - فنحن هنا في أحط دركات التشابه وبإزاء أوقح أشكال الاستهتار نورى العاطفة الدينية ضعيفة إلى حد العدم، والمبادئ الخلقية مقلوبة رأسًا على عقب. ونظن السبب راجعًا إلى أن هذا الشعر كان ينشد في بلاط أمراء أيونية، وكان هؤلاء على جانب كبير من الغنى والترف، فلم يكن الشعراء يتغنون بغير ما يروقهم، فيصورون الحياة سهلة جميلة، والشهوة غلابة لا يوقفها وازع، والقوة ممدوحة لذاتها لا يحدها الحق. غير أن الأوديسة أكثر تقديرًا للفضائل، فهي بالإجمال تمجد الرجل الحكيم الشجاع الصبور، والزوجة الوفية، والابن البار، والخادم الأمين. ولما كان اليونان قد تدارسوا هذا الشعر جيلاً بعد جيل، فقد بقي التأنيث عندهم وتأليه السموات بما فيها والإيمان بالقدر الأعمى أصولاً للدين وتغذي ميلهم الطبيعي للتمتع بالحياة بما وجوده في هذا الشعر

من الصور والأمثال، وسوف لا يني الفلاسفة عن معارضته حتى تبلغ هذه المعارضة أشدها عند أفلاطون.

٣ – هزيود:

أ – ولم يعد الضمير الإنساني في ذلك العصر صوتًا يجهر بأحكامه المقدسة ويتكلم عن الدين والأخلاق في جد ووقار – هو صوت هزيود أقدم شاعر تعليمي في الغرب عمَّر في القرن الثامن نشأ في بوبثيا فلاحًا بعيدًا عن بهرج الحضارة، ونظم للفلاحين ديوانًا أسماه: «الإعمال والأيام» ملأه حكمًا وأمثالاً تسودها فكرة عامة في فكرة العدالة، فتراه يقول: «السمك والوحش والطير يفترس بعضها بعضًا؛ لأن العدالة معدومة بينها. أما الناس فقد منحهم تزوس العدالة وهي خير وأبقى» وأيضًا: «إن للملوك آكلي الهدايا عدالة ملتوية. أما تزوس فأحكامه قوية»، ويقول: «من يضر الغير يجلب الشر على نفسه. عين تزوس تبصر كل شيء. إذا كان الذي يربح الدعوى هو الأكثر طموحًا فمن الضار أن يكون الإنسان صالحًا، ولكني لا أعتقد أن يكون تزوس الحكيم جدًّا قد صنع مثل هذا. إن ساعة العقاب لآتية لا محالة، وإن تزوس يهب القوة بذل الأقوياء يضع الذي يطلب الظهور ويرفع الذي يقعد في الخفاء»، ويغر ذلك كثير خلاصته أن الحق فوق القوة والإنسانية فوق الحيوانية.

ب – ويذكر لهزيود ديوان آخر في «الأصل الإلهي» يرى بعض العلماءأنه منحول وأنه متأخر عن عهده بقرن أو يزيد، وهو على الطريقة التعليمية حاول فيه الشاعر أن يؤلف مجموعة معقولة من الأساطير والمعارف القديمة. افتتحه بالضراعة إلى إلهات الشعر أن توحي غليه ما كان وما هو كائن وما سيكون، وأن تعلن قوانين الأشياء جميعًا، ثم مضى يسلسل الأشياء والآلهة في ترتيب يدل على أنه راعي ما بينها من علاقات العلية، وتدرج إلى النظام ومبدأه أن

الأصغر يخرج من الأكبر، فأخرج الجبال من الأرض والأنهار من أقيانوس وهكذا إلى آلهة الأوليمب وهم آخر المواليد على اعتبار أن القوى الطبيعية سابقة على الآلهة المكلفين بتدبيرها [١]. فهذا الديوان يعد أول محاولة في العلم الطبيعي بالرغم من أن نصيب المخيلة فيه أكبر من نصيب العقل، وأن الشاعر يروي ولا يفسر، فإن القصص الرمزي كان مألوفًا عند الأقدمين. ونبغ غير واحد من هؤلاء الشعراء والكتاب الذين يدعوهم أرسطو باللاهوتيين لمعالجتهم العلم في صورة الأسطورة.

٤ – الحكماء:

أ – ولما كان القرن ا لسابع اشتدت الخصومات السياسية بين اليونان، وقويت حركة التوسع الاستعماري والتنظيم الاجتماعي، ونبغ فيهم رجال معدودون أشهرهم: «الحكماء السبعة» على ما هو متواتر، ولو أن القدماء اختلفوا في عددهم وأسمائهم، ومنهم على كل حال سولون المشرع المعروف (٦٤٠ – ٥٥٨) وطاليس أول الفلاسفة. هؤلاء الحكماء كان مقصدهم الأكبر إصلاح النظم والخلاق، وقد ذكر أفلاطون بعض حكمههم فإذا هي عبر عملية استخرجوها من تجاربهم الشخصية وصاغوها في عبارات موجزة ذهب أمثالاً. قال: «واجتمعوا في دلف وأرادوا أن يقدموا لأبولون في هيكله بواكير حكمتهم فاختصوه بالآيات التي يرددها الناس الآن مثل: «اعرف نفسك» و «لا تسرف» و «الصلاح عسير» [٢] فكانوا مصلحين ومشرعين ولم يكونوا فلاسفة بمعنى الكلمة». وشاع هذا النوع من الحكمة وظهرت «أمثال أيسوب» وهو شخص أسطوري يرجعون عهده إلى النصف الثاني من القرن

---

(١) أرسطو: ما بعد الطبيعة م ١٤ ف ٤ ص ١٠٩١ ع ب س ٤ وما بعدها.

(٢) في محاورته «بروتاغوراس» ص ٣٤٣ – ١ ب.

السابع. ثم ظهر الشعر الحكمي فيه أمثال منظومة ونقد لأخلاق الناس. ثم خطى العقل خطوة حاسمة وانتقل إلى العلم والفلسفة.

٥ – الفلسفة اليونانية وأدوارها:

مرت الفلسفة اليونانية بثلاثة أدوار: دور النشوء ودور النضوج ودور الذبول.

والدور الأول فيه وقتان: الوقت المسمى بها قبل سقراط وهو يمتاز باتحاد وثيق بين العلم والطبيعي والفلسفة، ووقت السفسطائيين وسقراط يمتاز بتوجه الفكرة إلى مسائل المعرفة والأخلاق.

والدور الثاني: يملأه أفلاطون وأرسطو. اشتغل أفلاطون بالمسائل الفلسفية كلها، وجهد نفسه في تمحيصها، ولكنه مزج الحقيقة بالخيال والبرهان بالقصة، حتى إذا ما جاء أرسطو عالجها بالعقل الصرف، ووفق إلى وضعها الوضع النهائي.

الدور الثالث يمتاز بتجديد المذاهب القديمة وبالعود إلى الأخلاق والتأثر بالشرق، والميل إلى التصرف مع العناية بالعلوم الواقعية.

والكتاب كله شرح لهذا الإيجاز. ونظرًا لجلالة قدر أفلاطون وأرسطو وعظم أثرهما خصصنا لكل منهما بابًا فجاء الكتاب في أربعة أبواب.

obeikandi.com